أماراباك: مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا www.amarabac.com
المجلد الثاني، العدد الثالث (٢٠١١). ص ص٧٥-٨٤

السيطرة البرتغالية وأثرها على النشاط البحري في منطقة الخليج العربي ١٥٠٧-١٥٢١

د. إسماعيل نوري الربيعي(*)

الملخص: تعرضت العلاقات التقليدية في منطقة الخليج العربي إلى التغير في بداية القرن السادس عشر، جراء الصدمة الحضارية التي أحدثها الغزو البرتغالي للمشرق. جاء هذا في أعقاب توحيد الجهود الغربية في إسقاط الأندلس، وتزامن هذا العمل مع اكتشاف العالم الجديد على يد كريستوفر كولومبس عام ١٤٩٢. الحملات البرتغالية إلى الشرق كان هدفها الرئيس هو السيطرة على تجارة التوابل في الهند، تلك البضاعة ذات الأهمية القصوى في التجارة العالمية. وهكذا ساروا عبر اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح، بعد أن تمكنوا من تطوير صناعة السفن والأسلحة النارية.

The Portuguese Dominion and the effect on the Marines activity in Arabian Gulf 1507-1521

Ismail Noori Maseer

Abstract*: At the beginning of the sixteenth century, the traditional relations in the Arabian Gulf has been changed.because the shock of civilization, that represented by the Portuguese colonial conquest on the east.it's came after the western power Concerted effort to fall Andalusia, to synchronize with discovered the new world at the hands of Christopher Columbus in 1492. Portuguese campaigns to the east, was the main aim in order to control the spice in India, that Important and essential goods to the world economy. They were walking through the discovery of the Cape of god hope.after it has been the development of the ship building and firearms.*

(*) الجامعة الأهلية – مملكة البحرين، imaseer@yahoo.com

المقدمة

شهد مطلع القرن السادس عشر الميلادي، تحولا واضحا على مستوى العلاقات السائدة في منطقة الخليج العربي، باعتبار الصدمة الحضارية التي تعرضت لها المنطقة على يد طلائع الغزو الاستعماري الذي تمثل في القوة العسكرية البرتغالية التي زحفت نحو الشرق. وبالقدر الذي تتداخل فيه العوامل (العسكرية والاقتصادية والدينية)، فإن مدار التحرك نحو الشرق الذي جاء من قبل قوة غربية، كانت قد تضافرت فيها جملة من العوامل التاريخية، تلك التي تمثلت في الفاصل التاريخي الذي يتركز عند العام ١٤٩٢، حيث نهاية الحضارية العربية الإسلامية في الأندلس وسقوط غرناطة على يد التحالف الصليبي، وتزامنه مع اكتشاف العالم الجديد على يد الملاح الجنوي كريستوفر كولومبس، وبتمويل مباشر من قبل ملك أسبانيا وما تمخض عنه من تراكم للثروات (ذهب وفضة)، كان له الأثر البالغ في دعم موجهات العمل نحو التوسع والانسياح في العالم، لا سيما التطلع نحو السيطرة على أسواق الشرق، حيث التوابل، تلك البضاعة التي مثلت غاية مركزية في التوجهات الأوربية إبان تلك الحقبة.(١) والواقع أن النسق الذي تفاعلت فيه أوربا إنما كان ينسجم مع المجمل من التطورات التي ترافقت مع النهضة الإيطالية، والتشكيلات الاجتماعية والاقتصادية، تلك التي أتاحت الانتقال من النظام الإقطاعي إلى بروز دور القوى البورجوازية التجارية، حيث تنامي دور المدن، وحركة الإصلاح الديني الذي برز في ألمانيا، والكشوفات الجغرافية التي ظهرت في البرتغال، والتي تتوجت فعالياتها من خلال اكتشاف رأس الرجاء الصالح، حيث الطريق الذي أتاح للقوة البرتغالية من الالتفاف حول طريق التجارة التقليدي مع الشرق، بالإضافة إلى التطور الذي تلازم مع صناعة السفن واستخدام البوصلة وثورة الطباعة وصناعة الأسلحة النارية والوقوف على الرسوم الدقيقة للخرائط الجغرافية.(٢)

في البحث عن المحطات التجارية

من واقع الترصد لحجم التبادل البضائعي بين الشرق والغرب وحتى أواخر القرن الخامس عشر، فإن الميزان التجاري كان يشير لصالح الشرق، حيث الرغبة العارمة الصادرة عن الغرب في الحصول على البضائع الشرقية، من توابل ومجوهرات وحرير ومنسوجات وشاي(٣)، وكان الدور الأهم قد لعبته المدن التجارية الإيطالية، تلك التي لغبت دور الوسيط التجاري، والتي ساهمت في استنزاف المعادن الثمينة، ونقلها إلى الشرق، ومن هنا فإن الدعوات راحت تتصاعد في أوربا بغية إيقاف هذا النزف للثروات، باعتبار توجهها إلى بلدان غير مسيحية، مثل الصين والهند وفارس والدولة العثمانية، بل أن الحال بلغ حد أن تم توجيه ما كان يتم استخراجه من معادن ثمينة في العالم الجديد، ليتم توجيهه للحصول على البضاعة الشرقية(٤)، ومن هذا كان البرتغاليون قد بدأوا سياسة القمع والاستنزاف للشرق، عبر أسلوب السيطرة المباشرة والاعتماد على العنف المنظم، مستفيدين من الفارق التقاني الذي تحصلوا عليه، حتى كان الأسلوب الذي نهجه القائد البرتغالي ألبوكيرك، في سيطرته على الهند عند كوشين عام ١٥٠٣، في أعقاب عبوره لرأس الرجاء الصالح.

على الرغم من تركز هدف الغزو البرتغالي في محاولة الوثوب إلى الهند، باعتبار الرغبة في السيطرة على مركز الإنتاج الشرقي، إلا أن الموجهات الحربية والفعاليات العسكرية، كان قد تبدى أثرها تحديدا في السواحل العربية، إن كان عند مضيق باب المندب أم مضيق هرمز، وبالقدر الذي كانت فيه القوى العربية الإسلامية تعاني من الفرقة والتعدد والتبعثر، إلا أن هذا الواقع لم يكن ليشير إلى غياب روح الرفض والمقاومة من قبل القوى المحلية، بدليل أن المواجهة العسكرية كانت قد تجلت في موقف الدولة المملوكية من الغزو البرتغالي، إن كان على صعيد الدفاع عن مدخل البحر الأحمر، أم على مستوى محاولة التنسيق مع القوى الإسلامية في الهند، ومحاولة تنظيم الجهود لمواجهة الغزاة هناك، إلا أن انعدام التنسيق كان له الأثر الكبير في تراجع حدة المواجهة (٥)، لا سيما في أعقاب هزيمة الأسطول المملوكي في معركة دايو عام ١٥٠٩، والتي أذنت بأفول القوة المملوكية في الشرق.

البرتغاليون وسياسة الأرض المحروقة

تركزت الخطط البرتغالية حول السيطرة على المنافذ البحرية، باعتبار السعي نحو توطيد الأسس الخاصة بالطريق الجديد(رأس الرجاء الصالح)، ومن هذا كان الاتجاه نحو السيطرة على المنافذ والممرات البحرية المتعلقة بالبحر الأحمر والخليج العربي، باعتبار السعي نحو حصار مرتكزات الأنشطة البحرية العربية الإسلامية. كانت حملة ألفونسو ألبو كيرك قد تحولت عن مسارها الذي ركز في بواكيره للسيطرة على البحر الأحمر، لكن صمود الأسطول المملوكي، جعل منه يتجه نحو الخليج العربي، حتى تبدت الخطوات الأولى بالممارسة الوحشية. فالحملة التي تألفت من سبع سفن وحملت على متنها ٤٦٠ مقاتلا، مزودين بالسلاح الناري الحديث(مدافع، بنادق)، كان لها الدور البالغ في اقتحام المدن الساحلية، لا سيما الساحل العماني، الذي تحمل عبء الصدمة الأولى (٦)، فكان الهجوم على مدينة قلهات، التي لم تسلم من البطش البرتغالي على الرغم من موافقة حاكمها (شرف الدين)، على الشروط التي تقدم بها ألبو كيرك. وفي شهر أغسطس من عام ١٥٠٧، تقدم نحو مدينة قريات، التي واجهت الهجوم البرتغالي بصمود باسل، مما جعل الطرف الغازي، للتنكيل بالمدينة وحرق دورها وأسواقها، واستخدام أبشع الوسائل، خلال التعامل مع الأسرى. ومن واقع التنكيل والبشاعة البرتغالية، تهيأت مدينة مسقط لمواجهة الزحف القادم لها، عبر تنظيم خطوطها الدفاعية، إلا أن فارق القوة العسكرية في التسليح والخبرات القتالية، جعل التفوق يسير لصالح الطرف البرتغالي، الذي أعمل السيف بطريقة أشد بشاعة، في سكانها، حتى أن أعمال القتل والتنكيل طالت الجميع، نشاء وشيوخا وأطفال، وصلا بالنهب والحرق الذي طال كل شيء. (٧).

في ضوء الأعمال الوحشية وسياسة الأرض المحروقة التي مارسها البرتغاليون، والوعي بفارق القوة، لم يكن أمام مدينة صحار سوى إعلان قبول التفاوض، والذي استند إلى الاعتراف بالتبعية للتاج البرتغالي من خلال رفع العلم البرتغالي على قلعة المدينة، وتقديم ضريبة سنوية. وبالقدر الذي تمكن فيه البرتغاليون، من نشر نفوذهم عبر البطش والقوة، فإن هذا الواقع، لم يرهب مدينة خور فكان، التي وقفت إلى خيار المقاومة، تلك الأخيرة التي تمكن من إيقاع الخسائر البالغة بالجانب البرتغالي، مما حدا بهم بعد أن تم لهم السيطرة على المدينة، أن يتوجهوا للتنكيل بها، حرقا وتدميرا ونهبا. (٨)

تركيز الجهود نحو هرمز

البطش الذي نال الساحل العماني على يد البرتغاليين، كان بمثابة الرسالة الموجهة إلى مملكة هرمز، بكل ثقلها المالي والتجاري، حيث الطموح للسيطرة عليها، وبالفعل تقدم الأسطول البرتغالي، ليمارس عمليات النهب والقتل للسكان والتجار المقيمين فيها، حتى تم فرض ضريبة سنوية عليها بلغت ١٥ ألف دينار أشرفي، وإعلان التبعية للملك البرتغالي، والموافقة على إنشاء قلعة برتغالية على أرض الجزيرة. ومن واقع الخلاف الذي دب بين القوات الغازية، لم يجد ألبو كيرك سوى الانسحاب من هرمز، متوجها إلى جزيرة سوقطرة الواقعة إلى الجنوب من اليمن ليكمل استعداداته لهجوم جديد على هرمز. وبالفعل قدم ألبو كيرك مرة أخرى في سبتمبر ١٥٠٨، ليعيد الشروط التي فرضها على سيف الدين ملك هرمز، وخوجة عطار وزيره، حيث تمت الموافقة على دفع الضريبة، إلا أنهم رفضا شرط بناء القلعة، مما حدا بالبرتغاليين غلى فرض الحصار على الجزيرة. ولم يرفع هذا الحصار إلا بعد طلب نائب الملك دالميدا من ألبو كيرك أن يعود إلى الهند.(٩).

في أعقاب ما تحقق للبرتغاليين، صار التركيز لتوسيع النفوذ، الذي راح يتوجه للسيطرة على مناطق وسط الخليج العربي، حيث البحرين والقطيف والبصرة (١٠)، ومحاولة توجيه مجمل الأنشطة بما يخدم المصالح البرتغالية الساعية نحو احتكار النشاط التجاري في المنطقة، من خلال القضاء على المجمل من العلاقات التجارية والأنشطة الاقتصادية التي كانت تخص العرب المسلمين، وهكذا تم

التركيز على مجال المراقبة البحرية، وتكثيف ملامح الحضور العسكري الكثيف على النشاط الذي كان يمارس من قبل أبناء المنطقة في مجالات النقل والتحميل والتبادل السلعي(١١).

جاءت الإجراءات البرتغالية مستهدفة بنية العلاقات التقليدية السائدة في منطقة الخليج العربي، لا سيما في أعقاب السيطرة على مملكة هرمز، تلك التي كانت تمثل نقطة التقاء مجمل النشاط البحري في المنطقة، حتى كان التوجه نحو سياسة القهر والتنكيل والعسف المبالغ فيه، عبر استخدام القوة المفرطة، من أجل فرض الضرائب ومحاولة السيطرة الجمارك، وتحصيل الأموال على السفن العابرة لهرمز، بل والتحكم في طبيعة البضائع المارة، ومنح البرتغاليين أنفسهم المكانة الأولى بالرعاية، ولم يتوقف البرتغاليون عند هذا الحد بل تطلعوا نحو فرض حضورهم على النشاط التجاري المتعلق بصيد اللؤلؤ.، أو تجارة الخيول التي كان يتم تصديرها من البصرة إلى الهند(١٢). وكانت الإجراءات البرتغالية قد بلغت من الشدة إلى الحد الذي لم تسلم فيه عموم الأنشطة السائدة في المنطقة، هذا على صعيد التحكم بسير السفن الصغيرة منها أو المتوسطة، فقد كان التركيز نحو اعتماد سياسة استحصال القدر الأكبر من الأموال، فيما كان الهدف الرئيس قد تركز حول السيطرة على الموارد المالية التي كانت تستحصلها جزيرة هرمز، بوصفها المتحكمة بالطريق التجاري الموصل إلى الهند.

كانت السيطرة المالية لمملكة هرمز على منطقة الخليج العربي، أثرها البارز في غنى تلك المملكة، فكانت تحصل من قلهات على ١٢٠٠ دينار أشرفي، حيث الدينار الواحد يعادل ٤ غرام دوكا بندقي. ومن مسقط ما يقارب على ٤٠٠٠ دينار أشرفي، ومن خورفكان ١٥٠٠ دينار أشرفي، ومن صحار ١٥٠٠ دينار أشرفي. لقد شكل المورد الضريبي مصدرا مهما لهرمز والتي لم تكتف بدورها المسيطر على تجارة العبور بالنسبة للخليج العربي، بل تخطاه نحو السيطرة المالية والغنى والثروة.(١٣).

يتوقف بيدرو تيخسيرا عند وصف الأداء التجاري لجزيرة هرمز، باعتبارها السوق الواسع والمركزي لمجل النشاط التجاري لمنطقة الخليج العربي، حتى غدت بمثابة السوق الرائجة لمجل الأنشطة المرتبط ببلاد فارس والجزيرة العربية والبصرة، مما أتاح لها أن تحظى بمكانة تجارية رفيعة، انعكست على الواقع المعيشي لسكانها، إلا أن هذا الواقع سرعان ما تعرض للذبول والوهن في أعقاب السيطرة البرتغالية، وما قام به قائد الحامية البرتغالي Diego Barreto من عمليات سيطرة ونهب منظم للأموال والقدرات المالية والاقتصادية للجزيرة. (١٤) أما على صعيد النشاط التجاري في البحرين فإن التركيز يقوم على صيد اللؤلؤ، والذي يبدأ موسمه خلال الأشهر الواقعة بين يونيو وأغسطس، حيث يحتوي النشاط على ما يقارب مائتا سفينة من البحرين، وخمسون من رأس الخيمة وخمسون من نخيلة، ويبلغ حجم تجارة اللؤلؤ في البحرين ما يقارب خمسمائة ألف دوقية، تبلغ قيمة الضريبة السنوية المقدمة إلى ملك هرمز منها ما يقارب أربعة آلاف دوقية، ويتميز اللؤلؤ البحريني بالحجم الكبير والوزن الثقيل، مما منحه سمعة وميزة بارزة مقارنة باللؤلؤ الذي يتم صيده في مناطق الجوار(١٥).

تركزت الأنشطة التجارية في الحقبة السابقة للوجود البرتغالي، عند المراكز الثلاثة(هرمز، البحرين، البصرة)، فهرمز حظيت بالمكانة الرفيعة باعتبار لقاء مختلف الأجناس فيها من عرب وأوربيين لا سيما التجار الإيطاليين منهم، وفرس وأتراك، فيما بقيت السمة الرئيسة فيها تقوم على الهوية العربية الإسلامية، حيث اللغة العربية، كانت تمثل لغة التعامل الرسمي، وكانت السيطرة الأهم فيها قد تبدت من خلال النشاط البحري والتجاري للعرب فيها القادمين من مناطق عمان واليمن والبصرة والبحرين ورأس الخيمة.(١٦) أما البصرة فإن الموقع الذي تحصلت عليه، جعل منها ذات أهمية بالغة في مسار التبادل السلعي بين منطقة الخليج العربي والطريق الموصل إلى سواحل البحر المتوسط، أم البحرين فإن موقعها المتوسط بين هرمز والبصرة، أتاح لها أن تستقطب مجمل الأنشطة التجارية، حتى كانت الإشارة إلى أن ميناء البحرين كان يستقبل حوالي ألف سفينة سنويا(١٧)، فيما عرف عن سكانها البراعة في ركوب البحر والقدرة المميزة في صناعة السفن، هذا بالإضافة إلى الخبرة الطويلة في تجارة اللؤلؤ والاتصال الكثيف بالأسواق الشرقية، لا سيما الموانئ الهندية على وجه الخصوص.

كان فاصل القوة قد تبدى عبر صدمة الحضور الذي جاء به الغازي البرتغالي إلى المنطقة، حيث الاعتماد على الأسلحة النارية، تلك التي لم يتورع عن استخدامها القائد ألبوكيرك، عند هجومه على هرمز عام ١٥٠٧.، وعلى الرغم الفارق النوعي في التسليح، والمواجهة غير المتكافئة بين الأسلحة النارية التي جاء بها البرتغاليون، والسلاح التقليدي الذي يملكه الهرامزة، إلا أن موقف الملك سيف الدين كان قد تمثل في الرفض للوجود الأجنبي، واختيار قرار المقاومة، تلك التي أبرزت عن ردة فعل لا قوام فيها سوى التدمير الشامل للبنى الأساسية للمملكة، ليضاف إليها إرغام الملك على توقيع معاهدة تضمنت شروطا متعسفة قامت على إعلان الاستسلام غير المشروط، وتقديم غرامة حربية، ودفع ضريبة سنوية، وإخضاع مجمل نشاط هرمز التجاري لإرادة الغازي البرتغالي، لا سيما على صعيد حركة السفن، التي أشترط عليها أن تحصل على الإذن من القوات العسكرية للتحرك في مياه الخليج العربي(١٨). ولم يتوقف الأمر عند حدود التدمير والسيطرة والتحكم بمصائر النشاط التجاري، بل تخطاه نحو التغلغل في مفاصل النشاط الاقتصادي لملكة هرمز، حيث راح البرتغاليون يعمدون إلى السيطرة على البضائع الموجودة في المنطقة، من خلال التوجه نحو تثمين البضائع بأسعار لا تتوافق والقيمة الحقيقية لها، بل أن الضباط البرتغاليين توجهوا للعمل في مجال التجارة على حساب التجار المحليين، من خلال اعتماد أسلوب الابتزاز والمصادرة والترهيب(١٩) ومن هذا لم يتردد بلجريف من اقتباس الوصف الذي وضعه السير توماس هيربرت لهرمز عام ١٦٢٧، الذي يقول فيه(إن هذه المدينة البائسة أضحت مجردة من كل علامات البطولة والشجاعة بعد أن كانت في يوم ما، المدينة الأكثر ازدهارا في الشرق بأسره) (٢٠)

لم يتردد القائد ألبو كيرك من استثمار الفوز الذي تحقق في مدخل الخليج العربي، ومن هذا كانت خطواته اللاحقة قد تمثلت في التوجه نحو السيطرة التامة والشاملة، تلك التي استهدفت المجمل من العلاقات السائدة في المنطقة.فلم يقف الأمر عند سياسة الحديد والنار، بل تخطاه نحو الإصرار على إعلان التبعية للتاج البرتغالي، والتطلع نحو بناء القلاع والحاميات، لقد ركز البرتغاليون حضورهم بطغيان لافت حتى لم يتركوا منفذا لأبناء المنطقة من التعاطي فيه، ومن هذا فإن الرفض كان قد تبدى مبكرا لهذا الوجود الغريب الذي استهدف النهب والسيطرة.(٢١)، ومن هذا الواقع القائم على بسط القوة والهيمنة راح الاتجاه يتركز صوب فرض السياسة الضرائبية القائمة على النهب والإفقار، بل أن الملفت في الأمر راح يتطلع نحو محاصرة الأنشطة التجارية المحلية، وعبر جملة من الممارسات التي استندت إلى، إيقاف السفن المحلية وتفتيشها ووضع العراقيل في سبيلها، وفرض الشروط على العمل في النشاط التجاري، تحت ذريعة أهمية حصول التجار على تصريح خاص من قبل القوات البرتغالية. والواقع أن ممارسة القمع بحق الأنشطة المحلية كان له وقعه المؤثر في تراجع الحياة الاقتصادية في المنطقة، حتى راحت المعطيات تشير إلى تحول منطقة مدخل الخليج العربي، إلى مجرد حامية برتغالية، يسيطر عليها ثلة من العسكر الطامحين للسيطرة على المقومات الاقتصادية للمنطقة(٢٢).

ما هي الإستراتيجية التي ميزت الوجود البرتغالي في منطقة الخليج العربي؟ هل تم النظر إلى المنطقة بوصفها قاعدة وطريقا موصلا إلى الهند، أم أن الطبيعة التفاعل مع التفاصيل قد نبهت البرتغاليين إلى وجود موارد لا يمكن التغاضي عنها؟ تكشف التفاصيل عن توجه ضباط الحاميات البرتغاليين إلى محالة الإفادة القصوى من واقع النشاط الملاحي في المنطقة، ومن هذا راحوا يعمدون للسيطرة على مجمل الفعاليات المتعلقة حركة السفن، حتى توزعت الأنشطة بين الأسلوبين، الأول وقد تمثل في فرض الضريبة العالية وهو الاتجاه الرسمي، أما الثاني فكان يقوم على طريقة الابتزاز والسطو المسلح على السفن التجارية المسالمة، وقد بقيت عين المستعمر البرتغالي راصدة للنشاط التجاري في المنطقة، حتى تمت مطالبة هرمز بتقديم نسبة أعلى من الضريبة مما حدا بها إلى الرفض، الأمر الذي قدم المبرر لـ ألبو كيرك من قيادة حملة عسكرية جديدة عام ١٥١٥، تم في ضوئها تكريس تبعية هرمز، عبر فرض الغرامة الحربية وتكريس الوجود العسكري فيها.(٢٣)

التوجه للسيطرة على البحرين

في أعقاب مقتل ألبو كيرك عام ١٥١٥، تولى منصب نائب الملك، القائد سواريز والذي سارع نحو توطيد النفوذ البرتغالي على منطقة الخليج العربي، عبر جملة من الخطوات، والتي تمثلت في فرض السيطرة البرتغالية على تحصيل الجمارك في جزيرة هرمز، وتوجيه المساعي للسيطرة على البحرين باعتبارها مركز إنتاج وتصدير اللؤلؤ، وهمزة الوصل التجارية بين البصرة والأسواق الشرقية، وهكذا برز المسعى الجاد للتوجه نحو البحرين حيث برزت المحاولة الأولى من لدن ألبو كيرك الذي توجه لغزوها عام ١٥١٤، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل نتيجة لعدم معرفته بطوبوغرافية المنطقة، حيث تحيط الجزيرة العديد من الجزر المرجانية، لكن هذا لم يقف في وجه الطموح البرتغالي الذي تواصل ليتبدى في الحملة التي قادها القائد كوريا، الذي توجه نحو البحرين بـ سبع سفن و٤٠٠ جندي برتغالي، مضافا إليه قوات هرمزية مكونة من ٣٠٠٠ ألاف محارب، وصلوا الجزيرة في ٢٠٠ مركب صغير بقيادة وزير هرمز شرف الدين. أما على الجانب البحريني فقد وضع السلطان مقرن جل إمكاناته لمواجهة هذا الغزو من خلال التحضير، الذي تبدى في تهيئة ١١ ألف مقاتل، أشرف عليهم عشرون جنديا عثمانيا من سلاح المدفعية. جمال زكريا، دراسة لتاريط الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، ص ٧٥. إن فارق العدد هنا لا يعني تفوق القوات البحرينية المدافعة، هذا إذا ما أخذنا بالاعتبار الفارق في التسليح، حيث السلاح البرتغالي الذي يستند إلى البندقية والمدفع، مقابل الأسلحة التقليدية، يضاف إلى ذلك الفارق في التدريب والمهارات القتالية، إذ كانت القوات البرتغالية من العناصر المدربة، والضباط المتخرجين من الأكاديميات العسكرية. لقد بدا الهجوم في منتصف شهر يونيو، الشديد الحرارة، والذي كان في خدمة البحرينيين، إلا أن كوريا وبمساعدة الهرامزة استطاع تجميع شتات قواته، حيث قيض له تحقيق الانتصار بعد تعرض السلطان مقرن للإصابة، مما كان له الأثر البالغ في تراجع المعنويات بين صفوف جنوده.(٢٤) وبالقدر الذي تمكن فيه البرتغاليون من السيطرة على البحرين، إلا أن حضورهم توقف على الحامية الصغيرة التي تواجدت ا في القلعة، فيما صار الاعتماد في تسيير شؤون البلاد على الهرامزة.

ثورة الجمارك عام ١٥٢١

لم تدم العلاقة الهرمزية — البرتغالية منسجمة، بل سرعان ما غشاها تضارب المصالح، لا سيما فيما يتعلق بالتنظيمات المالية والجمارك، إذ بادر البرتغاليون غلى تعيين موظفين برتغاليين للإشراف على شؤون الجمرك في هرمز، وراحوا يتدخلون في صميم الفعاليات التجارية التي تنهض بها المملكة، الملفت للنظر هنا، أنه وعلى الرغم من أحوال العداء بين الهرامزة وأهل البحرين، باعتبار مساهمة الطرف الأول في مساعدة البرتغاليين في غزو البحرين، إلا أنهم لم يترددوا من الاستجابة لطلب هرمز، للانضواء في إدامة زخم الثورة التي انطلقت في أعقاب خمسة أشهر ونصف من الغزو.(٢٥)

وصولا إلى إعلان الثورة العامة والشاملة التي انطلقت شرارتها من مملكة هرمز، بزعامة توران شاه عام ١٥٢١، والتي شملت عموم الموانيء من قلهات حتى البحرين. ولم تكن لتخرج أسباب الثورة عن جملة المظالم والقسوة والبطش الذي مورس من قبل البرتغاليين، الذي تطاول ليصل للعبث بالمقدرات الاجتماعية والدينية، إذ لم يراع الجنود الحرمات والمقدسات، يضاف إلى ذلك الأوضاع المضطربة التي خلفتها السياسة الطائشة القائمة على روح الانتقام والإخضاع المباشر للنفوذ، مما جر المنطقة إلى الفوضى والاضطراب، وتوقف الحياة التجارية، تلك التي صارت حكرا على الأسطول البرتغالي فقط.(٢٦)

لقد سيطر ممثلو الحكومة البرتغالية على المجمل من تفاصيل الحياة الاقتصادية والسياسية، فلم يقف الأمر على الجانب التجاري، بل تخطاه للتدخل في الشؤون الداخلية لحكم مملكة هرمز والموانئ الأخرى في المنطقة. وبحكم سياسة الأرض المحروقة التي مارسها العسكر البرتغالي، فإن المطالبة العربية، باتت تركز على أهمية إعادة إعمار المنطقة التي كانت تعيش أزهى عصور الرخاء خلال

الفترة السابقة للغزو. ونتيجة لاضطراب الأوضاع وعدم الاستقرار فإن التوقف راح يطال حركة القوافل التجارية القادمة من الهند، التي باتت تخشى التعامل مع المنطقة خشية النهب والمصادرة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من العوز والفاقة التي راحت تعيشها هرمز، بل زاد عليه الأعباء التي كانت تتكبدها هرمز جراء تقديم الخدمات لصالح كبار الضباط البرتغاليين الذين، كانوا يعيشون برفاهية على حساب أصحاب الأرض.(٢٧) قامت الثورة على مبدأ التنسيق وتوحيد الجهود العربية، حيث التوقيت الموحد الذي تم اعتماده من قبل ملك هرمز في ٣٠ نوفمبر ١٥٢١، وتركيز الجهد العسكري من قبل مملكة هرمز، التي لم تأل جهدا من تقديم جل جهودها للانقضاض على القلعة البرتغالية، حيث تم قتل جميع جنودها وإحراق السفن الراسية في الميناء. وبالقدر الذي أعلنت فيه جميع المدن الساحلية الثورة في الوقت المتفق عليه، إلا أن الشيط راشد حاكم مسقط شذ عن هذه الثورة، ولأسباب يمكن إرجاعها لحالة العداء المستحكم مع ملك هرمز..

قامت السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي على الأسس التالية:

- فرض السيطرة على المنافذ البحرية،(٢٩) من خلال إقامة الحاميات العسكرية والدوريات البحرية.
- المراقبة الدقيقة والصارمة على أنواع البضائع، والتدخل المباشر في توجيهها وإيقافها.
- اعتماد أسلوب المصادرة للسفن، من خلال تقديم الحجج الضعيفة واجتراح الأسباب الواهية.
- تحول أغلب الضبط البرتغاليين للعمل في ميدان التجارة، والدخول في منافسة التجار المحليين.
- السعي نحو تحويل النشاط التجاري من الطرق التقليدية، إلى طريق رأس الرجاء الصالح.
- فرض السيطرة الجمركية على المراكز التجارية، في هرمز ومسقط والبحرين والقطيف.(٣٠)

كان للإجراءات البرتغالية القاضية في السيطرة على شؤون الجمارك في المراكز التجارية، أثره البالغ في تفاقم الأوضاع، وتنامي حالة التململ لدى أبناء المنطقة، يضاف إلى ذلك حالة السيطرة والبطش الذي درج عليه العسكر البرتغاليون في تعاملهم مع سكان المنطقة، ومن هذا تضافرت جهود أبناء المنطقة للقيام بثورة شعبية واسعة، شملت عموم الخليج العربي، كانت شرارتها قد اشتعلت في شهر نوفمبر ١٥٢١، ليكون الهجوم على مجمل المعاقل والحصون البرتغالية في هرمز والبحرين ومسقط وقريات، إلا أن الثورة الشعبية تعرضت للنهاية بسبب الخلافات الداخلية التي نشبت بين ملك هرمز وآل جبر، مما سهل على الأسطول البرتغالي مهمة القضاء عليها، وفرض إجراءات أشد تعسفا بحق المنطقة، متمثلة في فرض الغرامات الحربية وزيادة مقدار الضريبة.(٣١)

كان للوجود البرتغالي، أثره في تحول العلاقات السائدة في منطقة الخليج العربي نحو التوتر والمواجهات والثورات المتلاحقة، ومن هذا راحت صورة السفن التجارية الآمنة والمسالمة، تتراجع بإزاء الحضور الكثيف للسفن البرتغالية المحملة بالمدافع والمنذرة بالويل والاحتجاز والمصادرة، إنها أجواء التوتر والتدخل في الشؤون الداخلة لأبناء المنطقة، حتى كانت ثورة عام ١٥٢٩، والتي نشبت في هرمز والبحرين، لأسباب تتعلق بعزل ملك هرمز شرف الدين، وتضامن بدر الدين في البحرين مع هرمز. وعلى الرغم من إقدام البرتغاليين على إرسال أسطول بحري لقمع الثورة، إلا أن الموقف الشعبي كان قد أبرز تضامنا وتلاحما ساهم في تعزيز المواجهة، إلى الحد الذي لم يتمكن البرتغاليون من حسم الموقف.(٣٢)

كان لممارسة السيطرة المباشرة على الفعاليات التجارية في المنطقة، من قبل البرتغاليين، أثره الموجع على واقع الفعاليات الاقتصادية، حيث التعطيل للأعمال والتوقف والتراجع في الدخل، وهكذا تراجعت أعمال التجار والحرفيين وتضررت صناعة السفن، وتوقفت أعمال التفريغ والشحن في الموانئ، ولم يقف الأمر عن التجار والحرفيين، بل تخطاه نحو تجار التجزئة وأصحاب المحلات الخاصة، إلى الحد

الذي راحت الأسواق المحلية تعاني من شح المعروض(٣٣)، فيما توسع نشاط الضباط البرتغاليين في مجال الابتزاز والسيطرة والنهب، إلى الحد الذي لم يتورعوا فيه عن ممارسة أعمال القرصنة بحق السفن التي ترفض تقديم الرشوة لهم.

الخاتمة

ماذا ترك الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي؟ سؤال في منتهى المباشرة، وهو بمثابة الإفصاح عن الأوضاع المرتبكة التي خلفها على الواقع المزدهر والمستقر الذي كانت تعيش فيه المنطقة، فإذا جاء الكشف عن طريق راس الرجاء الصالح، ليطيح بالسيطرة التجارية على التوابل والحرير الشرقي، فإن العسف والاضطهاد وساسة الأرض المحروقة، كانت الأبرز من الوسائل التي درج عليها ضباط الأسطول البرتغالي، الذين لم يتوانوا عن ممارسة دور القراصنة، حتى لم يتورعوا عن النهب والسلب ومصادرة أموال التجار الأثرياء والسيطرة على السفن التجارية الآمنة، من دون مبرر سوى الاستناد إلى منطق القوة. وعلى الرغم من القوة المفرطة، والفارق الشاسع بين الطرفين إلا أن إرادة الحياة بقيت ماثلة في نفوس أبناء الخليج العربي، حيث كان للمقاومة دورها الفاعل والأكيد في المواجهة، وهذا ما تم التعبير عنه في جملة من الثورات والانتفاضات الكبرى، التي أحرجت موقف البرتغاليين، وجعلت منهم يتحصنون في سفنهم، وفي بعض الأحوال النادرة في حامياتهم المزودة بالأسلحة النارية.

الهوامش:

١. بانيكار، **آسيا والسيطرة الغربية**، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٢، ص ٥٢.

٢. إسماعيل نوري الربيعي، **العرب والاستعمار**، الشارقة ٢٠٠٠، ص ٤٣.

3. Greenberg, British Trade & the Opening of China 1800-1842, Cambridge 1969.p10.

٤. بتروف وآخرون، **ارتقاء المجتمعات الشرقية**، ترجمة حسان إسحق، دمشق ١٩٨٨، ج ١، ص ٩٥.

5. Carruthers, **The Desert Route to India**, London 1929,p 16.

6. Milles, **Countries and Tribes of Persian Gulf**, Vol 2, London 1919, p 144-146.

7. Sousa, **The History of the discovery and conquest of India**, translate by John Stevenson, Vol1, West Germany 1971, 167. p

8. قدري قلعجي، **الخليج العربي بحر الأساطير**، شركة المطبوعات، بيروت ١٩٩٥، ص ٣٦٥.

9. Sousa, o p cit, p 141.

10. Alboquerque, **(Autobiography) The Commentaries of translate to English** by Gray, London 1973, vol. 1, p 115.

١١. بانيكار، **آسيا والسيطرة الغربية**، المصدر السابق، ص ٥٢.

١٢. عائشة السيار، **دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا ١٦٢٤-١٧٤١**، بيروت ١٩٧٥، ص ٣٠.

13. Milles, o p cit, p154.

١٤. **تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر في أسفار بيدرو تيخسيرا**، ترجمة عيسى أمين، المنامة ١٩٩٦، ص ٩٥.

١٥. المصدر نفسه، ص ١٠٣.

١٦. جمال زكريا قاسم، **الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول ١٥٠٧- ١٨٤٠**، لا مكان ١٩٨٥، ص ٥٤.

١٧. أحمد بن ماجد، **الفوائد في أصول علم البحر والقواعد**، تحقيق إبراهيم خوري، دمشق ١٩٧١.

١٨. نوال الصيرفي، **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر**، لا مكان ١٩٨٣، ص ١٢٦.

١٩. ويلسون، **الخليج العربي**، ترجمة عبد القادر يوسف، الكويت لا تاريخ، ص ٢١٦.

٢٠. السير تشارلز بلجريف، **ساحل القراصنة**، ترجمة مهدي عبد الله،، بيروت ٢٠٠٦، ص ٣٦.

٢١. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، **علاقة ساحل عمان ببريطانيا**، الرياض ١٩٨٢، ص ٢٨.

٢٢. مايلز، **الخليج بلدانه وقبائله**، ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان ١٩٨٢، ص ١٥٥.

23. Serjeant. **The Portuguese of The South Arabian Coast** ,Oxford 1963,p 11.

٢٤. أحمد العناني، **البرتغاليون في البحرين وحولها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر**، مجلة الوثيقة، ع ٤، يناير ١٩٨٤، ص ٩٧.

25. Milles, op cit , p 150.

٢٦. صلاح العقاد، **الاستعمار في الخليج الفارسي**،، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٥٢، ص ١٩.

27. Wilson, **The Persian Gulf and Historical Sketch**, London 1954, p 122.

28. Milles, op cit, p 158.

٢٩. محمد عارف الكيالي، الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر، **مجلة الوثيقة**، ع ١٤، يناير ١٩٨٩، ص ١١٦.

٣٠. عبد الأمير محمد أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية، **مجلة دراسات**، ع ٧، عمان ١٩٨٨، ص ٨٢.

٣١. صلاح العقاد، **التيارات السياسية في الخليج العربي**، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٩.

٣٢. محمود علي الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧-١٦٥٠، **مجلة كلية الآداب**، ع ٢، ١٩٦٠ ٢٣٦.

٣٣. طارق نافع الحمداني، تجارة البصرة الخارجية ودورها في الخليج العربي خلال القرن السادس عشر، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، ع ٣٤، أبريل ١٩٨٣، ص ٦٦.